الفصل الثالث

تعدد الجماعات

بين التسديد والتبديد

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

وهل بعد توبة الأمة من الصراع المذهبى ، تتورط الآن فى الدخول إلى صراع جديد دعوى ؟

وهل الصراع الجديد الدعوى ، لا بد من أن يستكمل حلقات صراع الماضى المذهبى كلها ، بالمرور بالعلل والآفات والنتائج التى تعود على الدعوة ، ثم على الأمة جميعاً ؟

وهل نحن بصدد علّة خطيرة ألصقت بصراع الماضى ، وحين « تحوّل ولاء جماعات المذهب أكثر لانتماءاتها المذهبية من ولائها للفكرة التى حملتها أو للأمة التى تنتسب إليها » [1] ، وحين « تحوّلت أهداف العمل الإسلامى على يد المذاهب ، من السعى لتحكيم الإسلام ، إلى تحكيم رجال المذهب أنفسهم ، ومن ثَمّ انتهاء أهداف العمل عند مشاركة زعماء المذهب ورجالاته فى إدارات الدولة وفوزهم بمناصب القضاء والأوقاف والتعليم والحِسْبة وغيرها » ؟؟ [2] .

من الواضح أن الجماعات الإسلامية المعاصرة - ومع اختلافها السلبى - تمر أو اعتراها كثير من مظاهر الصراعات المذهبية السابقة ، ومن خلال المرور بالمنزلقات الى تجاوزتها تجربة الماضى ، ومن ثَمّ بدأ يلحق بها نفس الآثار

---

(١) ، (٢) من كتاب « هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، وهكذا عادت القدس » للدكتور ماجد عرسان الكيلانى .

السلبية ذات المردود الخطير على الأمة من النواحى الاجتماعية والتربوية والسياسية ، وإلى عتامة الأفق وتجسيد مرحلة الضعف والهزيمة ، واستمراء الأدعاء إذلالها وتركيعها .

منزلقات تدفع بعضها البعض ما لم يتداركها المبصرون ، ولتتحول أهداف البناء التى سعى إليها المؤسسون إلى معاول هدم فى أيدى المتعصبين ، فتبدد ما ارتفع من البنيان وتنسف ما عَزَّ فيه الجهد ، وليتهدد الجميع آثار العدوان ، وقد ينالهم مآل غيرهم فـ ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ (١) .

فما هى هذه المنزلقات التى بدأت تعلن بنذرها ؟ ولتعيد التاريخ إلى الوراء ؟

المنزلق الأول : شئ من العُجْب والاستعلاء يعترى الجماعات ، فيحرك فى كل جماعة ، أنها صاحبة الحق الوحيد فى التواجد على مسرح الحياة الإسلامية ، مع تعدد أسباب ادعاء هذا الحق ، فهؤلاء مثلاً الحنابلة « بسبب جهاد مَن سبق منهم منذ أيام ابن حنبل ، وبسبب المحن التى عانوا منها - أصيبوا بداء العُجْب - وأصبحوا يرون أنفسهم أوصياء على المجتمع الإسلامى وأنهم هم وحدهم أهل السُنَّة والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية ، ولهم وحدهم حق التواجد ، وحق الدعوة إلى الإسلام ، وحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبسبب هذا الاعتقاد صاروا إذا قام إلى جانبهم مَن يحاول الدعوة إلى اللّه اعترضوا عليه وقاوموه وأثاروا الشغب ضده فى المساجد وخارجها » (٢) .

كذلك كان الأشاعرة « بسبب دور الإمام أبى الحسن الأشعرى فى دحض عقائد المعتزلة يعانون من عقدة الاستعلاء الثقافى ، فقد كانوا يرون أنفسهم أهل الثقافة والفكر ويرمون الحنابلة بالسطحية وضيق الأفق » (٣) .

---

(١) الحشر : ٢

(٢) ، (٣) من كتاب « هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، وهكذا عادت القدس » د . ماجد عرسان الكيلانى .

المنزلق الثانى : نمو ظاهرة العصبية وتجميع الولاء وتحديده ، ونموها أكثر فى الأجيال المتتالية وفى التلاميذ حيث : « تسرب المذهبية الحزبية إلى صفوف الطلبة وإفساد روابطهم وعلاقاتهم ، وتدريبهم على الخصومات والصراعات التى كانت قائمة فى المجتمع ..... ونتيجة لذلك تحوّلت مجالس الدرس وساحات المدارس إلى ميادين لمناصرة آراء المذاهب وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم بالتصريح والتلميح ..... ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت المصادمات وحوادث الشجار بين مجموعات الطلبة ظاهرة بارزة فى المدارس ، فكثيراً ما كان أتباع المذهب الواحد يستقدمون شيخاً من رجال المذهب نفسه أو من مدينة أخرى لإلقاء درس أو محاضرة عامة وخلال هذه الدروس والمحاضرات يجرى التعريض بالمذاهب الأخرى فتنشب الفتن وتثور الخصومات » [١] .

ومن ناحية أخرى « شكلت المذاهب طوائف اجتماعية أشبه ما تكون بالأحزاب المتناحرة ..... ، وقد صار المذهب يضم أخلاطاً من الناس فكان منهم المشايخ والتجار والطلبة والعوام ..... ، وكانت تربط هؤلاء جميعاً رابطة هشة تقوم على المظهرية أكثر من الجوهر . إذ يكفى الفرد أن ينتمى للمذهب دون فهم أو تطبيق ، وأن يصحب أفراد المذهب فى رواحهم ، وأن يتزيا بزيهم وأن يكدس كتب المذهب فى مكتبه دون أن يقرأ صفحة واحدة منها فى عمره ، لينال نصرتهم ويشاركهم مكاسبهم . وكان أولئك الذين يخالفون تقاليد المذهب فى الخصومة أو يستعصون على الانتماء إليه يصبحون هدفاً للإيذاء وعُرضة للطعن والتشكيك فى الدين والخُلُق مهما كان حظهم من الفهم والإيمان والاستقامة » [٢] .

المنزلق الثالث - الإرهاب الفكرى : « ولقد أفرز هذا الالتزام المذهبى نوعاً من الإرهاب الفكرى ضد المستنيرين من أعضاء المذاهب نفسها وفرض عليَهم التوقف عن التفاعل الفكرى مع نظائرهم من خارج المذهب وألزمهم بالاقتصار

---

(١) ، (٢) المرجع السابق .

على مطالعة كتب المذهب وتصانيفه . والذين كانوا يخرجون على تقاليد المذهب فى الانغلاق والتعصب وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفاً للاتهام بالنفاق وعدم الالتزام والخروج على تعاليم المذهب مهما كانت منزلتهم العلمية أو رتبتهم المذهبية ..... ، وقد روى ابن عقيل طرفاً من تجاربه فى هذا المجال ، فقال: وكان أصحابنا الحنابلة يريدون منى هجران جماعة من العلماء . وكان ذلك يحرمنى علماً نافعاً » [١] .

وامتد ذلك الإرهاب ضد أتباع المذاهب الأخرى بالطعن والتشكيك والنَيْل من الأئمة والقيادات والقدح فى الدين والعقيدة ، ومن روايات التاريخ : « أن جماعة من الحشوية والأوباش والرعاع المتوسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازى الشنيعة ما لم يسمح به ملحد فضلاً عن موحد ، وتناهوا فى قذف الأئمة الماضين وقلب أهل الحق وعصابة الدين ، ولعنهم فى الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد ، والأسواق والطرقات ، والخلوة والجماعات . ثم غرّهم الطمع والإهمال ومدّهم فى طغيانهم الغى والضلال إلى الطعن فيمن يعتضد به أئمة الهدى وهو الشريكة الوثقى . وجعلوا من أفعاله الدينية معاصى دنية ، وترقوا فى ذلك إلى القدح فى الشافعى » [٢] .

ثم روى أيضاً من فتن الزمان فى هذا الشأن : « ومن الفتن ما حدث عام (٥٢١ هـ) حين قدم أحد رجالات الأشاعرة المشهورين إلى بغداد ، وهو أبو الفتح الاسفرائينى . فقد جاء هذا إلى بغداد واتخذ جامع المنصور مكاناً للدرس والوعظ ، فالتف الناس حوله وتأثروا به . فلم يرق ذلك للحنابلة فجمعوا أنفسهم ودخلوا على الاسفرائينى وعنّفوه ثم خرجوا يصيحون فى الشوارع : « هذا يوم حنبلى ، لا شافعى ولا أشعرى » [٣] .

* *

---

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع السابق .

وبعد استعادة ذاكرة التاريخ ، لسنا فى حاجة لسرد روايات شهود العصر ، للتدليل على أن الصراع بين الجماعات الإسلامية العاملة فى الساحة الآن ، قد تجاوز ما مضى وما زال يعانى من تداعيات ذلك ، إن لم تدركه وتدركنا جميعاً عناية الله ثم استدراك العقلاء .

ووجه الخطورة فى هذا الأمر ، أنه بات يشكل عبئاً أكبر أمام مواجهة التحديات ، وحيث بات العمل الإسلامى مهدداً من الداخل ، ومن القابلية للتشقق إلى القابلية للتصادم ، إلى القابلية لهدم بعضه بعضاً ، وبعد محاولة كل فريق فى نسف تجربة الآخر ، ثم إلى رفع سلاح التشكيك العقدى والإيمانى ، فهل يُنتظر بعد ذلك للبناء أن يرتفع فضلاً عن أن يستقر ؟

ولك أن تتناول بعض من نصوص الهدم والتبديد المتبادل :

فهذا يهجو ويرمى إحدى الجماعات ، وبداية من : « وما زال الإخوان فى كل قُطر إسلامى هم طليعة الفشل السياسى . وهم الذين يقفزون حيث لا يحسن القفز ، ويختبئون حيث لا يجوز الاختباء ، وينامون حيث يجب الصمود والحياة ، وإذا هبَّت العاصفة كانوا أول مَن يشرع القلاع والوقت هو وقت طى القلاع وانتظار مرور العاصفة » (١) .

وانتهاءً بـ « هل المنهج الإخوانى العقدى الذى يُخرج أمثال التلمسانى منهج سَلَفى لا غبار عليه ، وهل الجماعة التى تسمح بتصدر صفوفها ويكون مرشدها العام يقول هذا الكلام جماعة سَلَفية ؟ تباً لهذه السَلَفية إن هذا هو نتاجها وهؤلاء هم رجالها ومرشدوها وقادتها » (٢) .

ومن البدهى أن هذا لم ينشأ من فراغ ، وقد يكون أثر معاناة من رمى وتشكيك من الطرف المهجو ، وهذه هى شكوكهم : « لذلك رأينا من الواجب علينا دعوة الناس إلى عقيدة النجاة فتعرَّض لنا إخوة لنا وطعنوا فى تصرفاتنا ووصفونا بأوصاف شتىً : منها القصور فى الدعوة ، ومنها الجهل بالواقع ،

---

(١) ، (٢) وقفات مع كتاب للدعاة فقط - لمحمد العجمى .

ومنها دعوتنا كلام بلا عمل ، ومنها أصحاب فقه الأوراق ، ومنها حفظة الحواشى والمتون ، بل وصلوا إلى رمينا بعمالة السلاطين ، بل سموا منهجنا وأفكارنا وعقيدتنا « فلسفة باهته » وغير ذلك كثير » [1] .

وهكذا أصبح فى غيبة الحوار ، ومنهجية النقد ، فضلاً عن فقه الاختلاف ، فضلاً عن فقه التسديد والتصويب ، ذلك التقاذف الفاضح حديث الساعة ، وما تطفح به الأوراق والمنتديات .

* *

● من أسباب تنامى الظاهرة :

يشكل ضغط الواقع وتحدياته ، أكبر عوامل تفجير الظاهرة والإسهام فى دفعها للتصدع والتصادم ، فكلما أخفقت مسيرة الحركة الإسلامية فى تحقيق مكاسب لصالح الدعوة الإسلامية ، أو فى اتجاه فض الإشكاليات التى تعوق انطلاقة الحياة الإسلامية ، فضلاً عن الوصول لتصور سليم ومطمئن للتعامل مع هذا الواقع ، كلما استمر مسلسل الانشطار .

ولنقرأ معاً هذا النص الذى يرى من خلاله صاحبه نقطة الخلاف بين جماعته وبين جماعة أخرى ، فها هو ذا يقول : « أما نقاط الخلاف - أخى المسلم - فهى فى أصلها واحدة ولكن تشعبت عنها نقاط أخرى يطول سردها ، فهى فى البداية يمكن إجمالها فى هذا السؤال : هل المستجدات العصرية يجب أن تخضع للشرع أم أن الشرع يجب أن يخضع للمستجدات العصرية والتطورات السياسية؟ فإن كانت الأولى حقاً فنحن على الحق وهم على الباطل ويجب عليهم الرجوع إلى الحق لكى تتحد كلمة المسلمين ويقفوا ضد عدوهم ، وإن كانت الثانية حقاً فنحن على الباطل وهم على الحق ويجب علينا أن نبادر بالرجوع إلى الحق وإلا كنا دعاة فُرْقة وضلالة » [2] .

---

(١) ، (٢) الطريق إلى الجماعة الأم - لعثمان نوح .

والنص السابق نفسه يسوقنا إلى عامل مهم آخر وراء تصعيد الظاهرة ، وهو التعامل العاطفى - أو غلبته - على كثير من رموز الإسلاميين ، سواء أكان فى التناول مع تحديات الواقع ، أو فى قضايا اختلاف الرأى والمذهبية الدعوية .

ولنعد إلى تساؤل الأخ - غفر الله له - لنجد دلائل لهذه الآفة ، والمسيطرة على غالب الخطاب الدعوى ، فصيغة السؤال بداية استفزازية ، وطريقة التحاكم بها إلى الجمهور فى غيبة الطرف الآخر أكثر استفزازاً ، فضلاً عن أنه نصب نفسه - مع كونه طرف فى الشكوى - حاكماً فى نفس الوقت ، يحدد مقاييس الإخضاع لكل من الشرع والمستجدات ، ومن كون الحكم على الطرف الثانى أنه اختار ابتداءً طريق إخضاع الشرع للمستجدات العصرية والتطورات السياسية ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على درجة الاستخفاف بعقل القارئ ، أو الاغترار بالنفس واعتقادها امتلاك الصواب المطلق ، فضلاً عن غياب التعامل المنهجى مع مثل تلك القضايا الغاية فى الحساسية ، وقد يرجع السبب فى غلبة هذا التيار العاطفى على مقولات الصحوة ، لقوة التمثيل الشبابى ودوره الأساسى فيها وغياب العلماء والمربين .

* *

• المشكلة ليست فى التعدد :

المشكلة ليست فى الخلاف الذى نشأت عنه الحاجة للتعدد ، وطالما ظل هذا الخلاف اختلاف تنوع ، وطالما ساعد هذا التعدد على استيعاب القدرة على تحقيق مزيد من الأهداف ، وعلى استيعاب أكبر مساحة أفقية فى الانتشار ونشر العلم والوعى الإسلامى بين جماهير الأمة ، وعلى استيعاب القدرة على الاستمرارية وعدم اختفاء دور المُذكِّر حيناً من الدهر وحينما تحول بعض الأسباب القاهرة دون استمرارية بعض فعاليات العمل الدعوى ، وأخيراً القدرة على تفجير طاقات أكثر وكفاءات نوعية فى البذل ، ومن ثَمَّ إثراء العمل الدعوى .

* *

● من أين يبدأ الطريق إذن ؟

لحل إشكالية الصراع الناشئة عن المذهبية الدعوية ، ومن ثَمَّ الحفاظ على المكتسبات التى تحققت بجهد وعرق السنين ، وآلام وعذابات المسجونين ، ودماء الشهداء ودموع الأيتام ومعاناة الأرامل ... ، ومن أجل التخلص من مأساة التبديد التى تجعل جهد الجميع كنفخ فى رماد ، يجب القناعة بعدة أمور ، وقبل ذلك ضرورة استحضار الرغبة الصادقة فى وضع حد لهذا الاستنزاف ، وهذه الأمور هى :

أولاً : اعتراف كل الجماعات بأهمية وجود الآخر ، وحاجة ساحة العمل الدعوى إليه ، ومن ثَمَّ وضع ضوابط للعمل الجَماعى ، تخلق فى حس المنتمين أهمية الاستفادة واستكمال الحاجات التربوية من انفتاح الساحة الدعوية على بعضها .

ثانياً : وضع خطوط عريضة لأهداف وضوابط العمل الدعوى تستوعب أكبر قدر من نقاط الاتفاق ، وذلك لم يتأت إلا من خلال ساحات الحوار ، والمؤتمرات العلمية ، ومن ثَمَّ استكمال الدور الذى بدأه الشيخ حسن البنا رحمه الله بالأصول العشرين .

ثالثاً : عدم إشغال الساحة بالقضايا المختلَف فيها ، مع إمكان أن يدلى كل ذى رأى برأيه وبدون تسفيه للآراء الأخرى ، وليسع الجميع ما وسع المسلمون على مدار القرون .

رابعاً : التعاون على إنشاء وإثراء فقه التسديد وبمبادرات عملية رائدة ، ومن ثَمَّ إبراز المنهج العلمى الإسلامى فى التقويم والتناصح ، وانطلاقاً من الروح الأخوية الإسلامية ومن وحدة الهدف والغاية والإحساس بالخطر الواحد .

* *

● على طريق التسديد :

وفى سبيل تفعيل منهج التسديد مع الأقران ورفقاء الطريق ، فلنستحضر معاً هذه المعانى ، إن لم ترق لمستوى الحقائق ، وأهم من ذلك أن تنفتح إليها صدورنا وحتى تجد الطريق إلى قلوبنا وأعماق قلوبنا :

أولاً - كل بنى آدم خطَّاء :

فعندما تكبر أخطاء الآخرين فى أعيننا فلا نكاد نرى غير ذلك ، فلنتذكر صيحة سيدنا عيسى عليه السلام فى بنى إسرائيل : « مَن كان منكم بلا خطيئة .. فليرجم أخاه بحجر » .

فحينئذ سيتوارد على الخاطر ، جملة من المعانى ، تبدأ بالمعنى النبوى الكريم : « كل بنى آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون » [1] ، فيعقبها مقالة ابن القيم ولمزيد من الإيضاح : « وكيف يُعصم من الخطأ مَن خُلق ظلوماً جهولاً ؟ ، ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدَّت إصاباته » [2] .

ثم تتأتى مقالة هذا الشاعر فى أبياته المحفوظة فى ذاكرة التاريخ :

والمرء يعجب من صغيرة غيره ... أى امرئ إلا وفيه مقال

لسنا نرى من ليس فيه غميزة ... أى الرجال القائل الفعال

*

ثانياً - كلاكما محسن :

يروى النزَّال بن سبرة عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : سمعتُ رجلاً قرأ آية سمعتُ النبى يقرأ خلافها ، فأخذتُ بيده ، فانطلقتُ به إلى النبى ﷺ فذكرت ذلك له ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال : « كلاكما محسن ، ولا تختلفوا ، فإن مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » [3] .

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى وإسناده صحيح .

(٢) مدارج السالكين .

(٣) رواه مسلم .

ونحن فى حاجة إلى رجال تُعرف الكراهية فى وجوههم خوفاً من أن تهلك الأمة ، فيكونوا على بصيرة من مداخل التنازع والاختلاف وفى قضايا لا تحتمل ذلك .

*

ثالثاً - الدين النصيحة :

فعن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أنّ النبى ﷺ قال : «الدين النصيحة » (ثلاثاً) ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله عَزَّ وجَلَّ ولكتابه ولرسوله - ﷺ - ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

والنصحية هى كلمة يُعبَّر بها عن جملة هى إرادة الخير للمنصوح له (٢) ، و « النصيحة لعامة المسلمين ، هى إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وستر عوراتهم وسد خلاتهم ونُصرتهم على أعدائهم والذب عنهم ومجانبة الغش والحسد لهم ، وأن يحب لهم كما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ومن أنواع نصحهم دفع الأذى والمكروه عنهم ، وإيثار فقيرهم وتعليم جاهلهم ورد مَن زاغ منهم عن الحق فى قول أو عمل بالتلطف فى ردهم إلى الحق، والرفق بهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومحبة إزالة فسادهم ولو بحصول ضرر له فى دنياه ، ..... ، وكما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدر والنصح للأمة ، وقال أيضاً : المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويُعيِّر » (٢) .

*

---

(١) رواه مسلم .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى .

رابعاً - منهج أهل الحديث فى التقويم [1] :

١ - فى تقويم المبتدعة :

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : « .. واللّهُ أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق ، وألا نقول عليه إلا بعلم ، وأمرنا بالعدل والقسط ، فلا يجوز لنا إذا قال يهودى أو نصرانى - فضلاً عن الرافضى - قولاً فيه حق أن نتركه ، أو نرده كله ، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق » .

وقال ابن حجر : « فالمعتمَد أن الذى تُرَد روايته : مَن أنكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة ، وكذا مَن اعتقد عكسه ، فأما مَن لم يكن بهذه الصفة وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه ، فلا مانع من قبوله » .

* ابن تيمية يعترف بفضائل المبتدعة :

فها هو يقول : « وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وانتفعوا بذلك ، وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاوا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير ..... وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء مَن يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهى بدعة أهل السُنّة » .

---

(١) كل ماجاء تحت هذه النقطة ، اقتباس بتصرف من رسالة : منهج أهل السُنّة والجماعة - لأحمد عبد الرحمن الصويان فى تقويم الرجال ومؤلفاتهم .

٢ - كلام الأقران يُطْوَى ولا يُرْوَى :

قال الإمام الذهبى : « كلام الأقران بعضه فى بعض لا يُعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد . وما ينجو منه إلا مَن عصمة اللّه ، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصدِّيقين . ولو شئتُ لسردتُ من ذلك كراريس » .

وقال السبكى : « والحذر الحذر من هذا الحسبان ، بل إن الصواب عندنا أن مَن ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحوه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبى أو غيره ، فإنّا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة . ولو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقال ابن حجر العسقلانى : « واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن فى جماعة بسبب اختلاف فى العقائد ، فينبغى التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق » .

*

خامساً - من مقاييس التقويم :

١ - تحكيم الشرع لا الهوى :

يقول الإمام ابن تيمية : « وهذه حال أهل الحق والسُّنّة يعرفون الحق الذى جاء به الرسول وهو الذى اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول . ويدعون إليه ويأمرون به نصحاً للعباد وبياناً للهدى والسداد . ومَن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى ، ولم يحكموا عليه بالجهل ، بل حكمه إلى اللّه والرسول ، فمَن يُكفِّره الرسول ، ومنهم مَن يجعله من أهل الفسق أو العصيان ، ومنهم مَن يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور ، والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد يُجعل له أجراً على فعل ما مرّ به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له ، كما دلّ الكتاب ،

وأما أهل البدع فهم أهل أهواء وشبهات يتبعون أهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه ، ويحكمون بالظن والشبهة ، فهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » [1] .

٢ - تقدير عامل البيئة والزمان :

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى : « إن الزمان والبيئة عاملان هامان فى حياة الرجال ، فلكل عصر مشاكل ومسائل وملابسات وعوائق تحدد نطاق العمل ، وقد تفرض منهجاً دون منهج ، وأسلوباً دون أسلوب ، والغاية واحدة ، فلا يجوز لنا أن ننقل رجلاً من عصره ، وننتقل به إلى عصرنا ونطبق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكم عليه بالفشل والإخفاق ، أو الضعف والعجز ، ونسلبه محاسن نفسه ، ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطاً من شروطنا ، ولم يكن « المثل الكامل » فى الإصلاح المنشود والتجديد المطلوب .....، إن ذلك التراث العظيم والثروة التى بين أيدينا من كل معطيات الدين فيها نصيب لكل مَن ساهم فيها بإقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومحاربة الجاهلية والمادية ، والدعوة إلى الله وإلى دار السلام ، وإحياء ما درس من الخصائص الإسلامية وبث الروح الإيمانية فى هذه الأمة ، ولكل مَن أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، ورد هجمات الفلسفات الأجنبية ، ولكل مَن دافع عن الفكرة الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنة هددت الإسلام ، ولكل مَن حفظ على هذه الأمة دينها ومصادره ، وقام بتدوين جديد للحديث والفقه ، أو فتح باب الاجتهاد ، ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع وقانوناً منظماً للحياة والمجتمع ، ولكل مَن حاسب المجتمع فى عصره ، وأنكر انحرافه عن مُثُل الإسلام ونظمه ودعاه إلى الإسلام الصحيح ، ولمن سلك سبيل الإقناع العلمى فى العصر الذى كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد، ووضع لعصره كلاماً جديداً، ولكل مَن خلف الأنبياء فى الدعوة والتذكير والإنذار والتبشير ، وحرّك الإيمان

---

(١) المرجع السابق .

فى النفوس ، وقام فى وجه المادية الجارفة فى عصره ، فحدّ من تأثيرها وأنقذ خلقاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيه ، ولكل مَن حفظ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ، زمن أن تكون فريسة للغارات الأجنبية ، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة عدواً لم تعمل فيه السيوف ، ولم تقاوم الجنود ..... ، ولكلٌ فضل ، وما التاريخ إلا تأدية الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل ، والاعتراف بالفضل ، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه ، القسط المطلوب منه ، وكان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام ، وكلٌ كان سهماً مصيباً فى كنانة الإسلام ، ولولا هذه الجهود المخلصة ، ولولا هذه الأقساط التى قد لا تُرى إلا بمكبرة التاريخ لما وصلت إلينا هذه المجموعة التى نعتز بها ونستند إليها ، ونقتبس منها النور ، سليمة موفورة ، نتباهى بها على الأمم والديانات »[1] .

* * *

(١) رجال الفكر والدعوة - للشيخ أبو الحسن الندوى .